ما سبب تخلف المسلمين ؟

ليست هذه المشكلة من قبيل المشكلات المختلفة ، كما أنها ليست من نسيج الترف الفكرى ، لأن هذه المشكلة تفرضها صورة السبات والركود التى هيمنت منذ زمن طويل على مناطق شاسعة تمتد من جبل طارق غرباً إلى أندونيسسا شرقاً، ولكن أبرز صورة لهذه الظاهرة التى يسميها البعض ب "ليل أو غروب الأسلام" ظهرت ابتداء من مرحلة الاستعمار الإنجليزى للهند وامتدت إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ، إلا أن جذور وبداية الأسباب الحقيقية لها تعود إلى ما هو أبعد من ذلك ، كما أن آثارها مازالت قائمة إلى درجة كبيرة حتى يومنا هذا.

إن أسباب نهضة أو انحطاط أمة ما تكون دائما معقدة ومتعددة الأبعاد ، ومع ذلك فلا يكون هناك إلا جانب منها له نصيب من الأسباب الموضوعية ما يجعله يخضع للتحليل والمنطق والإدراك ، بينما يظل جانبها الآخر غير خاضع لذلك لأنه يكمن فى قلوب وإرادة البشر .

ما الأسباب الكامنة التى جعلت ينابيع الحياة والإرادة والعلوم تنبع من أرض مصر القديمة واليونان وروما والجزيرة العربية والهند والصين والمكسيك ؟ وفى أوربا وأمريكا ، كما نشهد اليوم ؛ فى الوقت الذى تعيش وتموت أجيال لا حصر لها من "الفلاحين" فى مناطق شاسعة خارج هذا النطاق الأول ، سائر دوما فى الدائرة نفسها لتستقر فى مجاهيل التاريخ ؟ ما الأمر الذى يجعل شعبا يكتشف هويته فجأة ويتحول إلى مهد العمالقة الشجعان والرجال المبجلين وفطاحل الشعراء ، بينما تظل شعوب أخرى تطلع وتغرب عليهم الشمس نفسها ، تعيش فى ظروف مشابهة ، ومع ذلك لا تشكل إلا مستنقع المجاهيل ؟

وعادة ما يدور التوضيح المعتاد للأمر المطروح حول ما يلى : إن العلة فى ذلك تعزى الى الحكام والمؤسسات والظروف الأقتصادية وأمية الشعوب ، وهلم جراً. أو إن الشعوب غير متعلمة ، ولذلك تحتمل طغيان الحكام ؛ وهؤلاء الحكام أنانيون ، ولذلك لا يعملون لتعليم شعوبهم . والمؤسسات العليمية انعكاس مباشر لمستوى المجتمع الثقافى بالأضافة إلى تحكم النظام القائم فيها ! إذن ، أين السبب وأين النتيجة ؟

إن علم التاريخ ليس علما من العلوم التطبيقية ، كالرياضيات مثلا . ولاشك فى أن للتاريخ قواعد وقوانين ، ولكنها ليست فى شكل القواعد التى تضمن لنا صحة افتراض وتوقيع مجريات أحداث ما ، أو تضمن صحة تحليل ما قد جرى فعلاً . إن التاريخ قصة حياة ، والحياة انعكاس للحرية والعفوية وعدم الخضوع للتوقعات ؛ ولكن التعريف الحقيقى للحياة يظل سرا . لذلك لن تقوم – ولا يمكن أن تقوم – إجابة علمية عن سؤال : ما سبب تخلف أمة ما ؟

ومع أن غرض هذه المقالة ليس فى بحث أو تعداد – على الأقل – أسباب تخلف الشعوب الأسلامية ، فأننى سأعرض هنا لذكر السببين الاثنين اللذين يبرزان أكثر من غيرهما ، نظراإلى أهميتهما : الأول – خارجى – وهو هجوم المغول ؛ والأخر – داخلى – وهو التفسير الدينى المحض للأسلام .

أظن أن الوعى البشرى ما زال لا يدرك إلى الآن كل الآثار المدمرة لكارثة الاجتياح المغولى ، مهما كتبنا وتحدثنا عنها ! لقد تم تدمير مئات المدن وكل ما صنعته يد الأنسان فى مساحة مترامية الأطراف . فى منطقة حيوية بالنسبة للأسلام ، فى شكل لا مثيل له فى تاريخ البشرية القديم والحديث ! إنه من قبيل المعجزات أن تنهض من جديد تلك الشعوب التى اجتاحتها جيوش المغول وأفنت بعضها عن أخرها ؟

ومن جانب أخر كان التفسير الدينى المحض للأسلام ، الذى حصر الأسلام فى دائرة رسالة دينية ، مهملا ومنكرا دوره فى تنظيم وتغيير العالم الخارجى، عامل إضعف داخلى لقوة و مناعة الأمة الأسلامية ، وجعلها غنيمة سهلة للجيوش البربرية .

ولنعد الأن الى الغرض الأصلى من هذا المقال ، وهو محصور فى محاولة استخلاص الأجابة عن السؤال – من خلال سلسلة من الأسباب : هل كان الأسلام باعتباره دينا وفكرا ونمط وفلسفة حياة لملايين البشر الذين يسمون بالمسلمين – أحد عوامل تخلف الشعوب الأسلامية ؟

لم تكن الشعوب الأسلامية -أو غالبها – متخلفة فى الماضى وأما اليوم فأنها متخلفة ، ولكنها لا تتبع الأسلام بالمفهوم العملى . إن التاريخ شاهدى لما قلته فى الشق الأول ، وأنا وأنتم ونحن جميعا شهود على الشق الثانى .

إن الأسلام مجموعة تعاليم حواها القرآن الكريم والحديث الشريف والمصادر الأخرى المعروفة . ولكن الأسلام عنوان لظاهرة تاريخية فى العالم الواقعى ، وعنوان للحركة التى أقامت نظام القضاء وأنشأت المدن والدول والحضارات . إن الأسلام سواء باعتباره رسالة أو ظاهرة تاريخية ، ليرفض الركود والتخلف .

ولنتذكر بأن الاسلام قد اتهم بأنه "دين السيف" ودين أولئك " الذين لا يخضعون حتى فى صلاتهم " وأن هدفه السيطرة على العالم ، وليس تهيئة الأنسانية للمملكة الإلهية" و "أن الصوم فى الأسلام أقرب إلى نظام صارم منه إلى زهد وخشوع" و "أنه دين أختلطت فيه القسوة بالرأفة والعبادة بالانغماس فى ملاذ الدنيا""!

إن هذا الهجوم بغض النظر عن بواعثه ، فيه جانب من الحق لأن الأسلام يسعى دائما إلى تحقيق عالمين : خارجى وداخلى ، أخلاقى وتاريخى ، هذه الدنيا والآخرة . لذلك يمكن تعريف الأسلام بهذه الثنائية . يطالب الأسلام بالامتثال لله وللعمل الصالح ، ولكن رسالته الوحيدة لمجابهة الشر والبغى والأعداء والأمراض وقلة النظافة والخرافة – هى الجهاد .

ويذهب الباحث الفرنسى جاك ريسلر Jacques Risler إلى أن الأسلام بنى على ستة أركان – وليس على خمس – ويضيف الجهاد . ولاشك فى أن أوثق من فسر روح الأسلام هم المسلمون فى القرون المفضلة . من هنا ستوضح الحقائق التى سنسردها أنهم أدركوا أن الإسلام يفرض على أتباعه تحرير وتغيير العالم ، وأن الأسلام ليس دعوة إلى مجرد الأستسلام للمصير .

ظهر الأسلام سنة ٦١٠ بين قبائل جاهلية بعيدا عن حواضر شعوب الحضارات القائمة انذاك ، وانتقل النبى – صلى الله عليه وسلم –إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٢م،ولكن بعد مرور مئة سنة

فقط وقفت الجيوش الأسلامية تحت أسوار باريس فى معركة بويتيرسا سنة ٧٣٢م !فلنتأمل بركان الحياة هذا ولننظر إلى ما جرى فى هذه الوثيقة العملاقة فى غضون مئة عام فقط .

لقد قامت حضارة كاملة مغايرة لجميع الحضارات المعروفة ووضعت أسسها على مدى مئة عام من الحركة الدؤوب والهدم والبناء ، وتم احتواء شعوب متحضرة كاملة فى هذه الرقعة الشاسعة بقوة الدين والعلم فقط !

فتحت سوريا سنة ٦٣٤م وفتحت دمشق ٦٣٥م وكتيسفون ٦٣٦م والهند ومصر سنة ٦٤١م وقرطاجنة ٦٤٧م وسمر قند ٦٧٦م والأندلس ٧١٠م ، وأوقفت الجيوش الأسلامية فى فرنسا سنة ٧٢٠م . ووصل الدعاة المسلمون إلى الصين سنة ٦٢٩م وسلموا رسالة الخليفة إلى القيصر تاى شونغ ، وحصلوا على إذن بنشر الأسلام ، ثم أقاموا مسجدا فى مقاطعة كانتون الذى مازال قائما للآن ويعد أقدم مسجد فى هذا الجزء من العالم .

هذه النهضة "أو تحرير للقدرات البشرية لا مثيل له" (الفليسوف سبنغلر O.Spengler)تظل فريدة من نوعها فى تاريخ البشرية ."بذلك أصبحت الجزيرة العربية نبع دين وإرادة"<كما يصف تلك الأيام هـ . غ . ويلز H.G. Wels فى كتابه "تاريخ العالم" هزمت البحرية الأسلامية بحرية البيزنطيين فى معركة قرب اللاذقية سنة ٦٥٥م، ويظل إلى الأن غير واضح منأين حصل العرب على تلك السفن؟ويحاصر الخليفة معاوية ابن أبى سفيان مدينة القسطنطينية سنة ٦٦٢و٦٦٧م ، بينما تمتد الخلافة الأسلامية فى عهد الخليفة عبد الملك وابنه الوليد (٦٨٥م-٧١٥م) من جبال بيرينى غربا حتى الصين شرقا . ثم إن الدول الأسلامية فى الأندلس والشرق الأوسط والهند ، مع مراكزها فى قرطبة وبغداد ودلهى تمتد مدة ألف عام ! وعندما أخذ الأسلام يتراجع من الأندلس التى حكمها أزيد من ٧٠٠ عام و أزهر بأجمل أزهار حضارته منسحبا أمام الضربات الموجعة على يد محتكم التفتيش ، فاضت ينابيعه الجديدة فى آسيا الوسطى ، ثم غمرت القسطنطينية وعبر البلقان فاضت فى أوربا .

حاصر العثمانيون مدينة فينا أخر مرة سنة ١٦٨٢م (أى قبل نحو ٣٠٠ عام)، بينما سقط الحكم الأسلامى فى الهند قبل نحو ٢٥٠عام ، بعد عهد وصف بأنه "أجمل وأزهر عهد عاشته الهند فى تاريخها"(هـ .غ . ويلز)، أى فى عهد أسرة المغول العظام من (١٥٢٦-١٧٠٧م).

وأسرد هنا بعض الحقائق التاريخية لتقريب الصورة . كان أكبر شاه –أحد ملوك أسرة المغول العظام –" أحد أكبر عظماء ملوك الهند، كما كان قد تبوأ مكانه بين عظماء الملوك فى تاريخ الأنسانية الذين كانوا عظماء بالمعنى التام للكلمة . إن أغلب جوانب النظام الذى أقامه فى الهند مازال قائما إلى الأن ، كان أشجع الشجعان فى القتال ولكن بمجرد تحقيق الانتصار يظهر فى معاملة الأسرى المهزومين فى منتهى الأنسانية ، وكان عدوا لدودا لجميع ألوان الظلم والوحشية . سخر قوته لأعمال عظام وقت السلم ، وأقام المدارس فى أنحاء الهند ، ومع أنه لم يدرك أهمية ذلك بقدر ما أدركه الأنجليز الذين قضوا على حكمه فى الهند ، إلا أنه عمل أكثر بكثير منهم لسعادة شعب بلده."(الدكتور شميت Dr Schmidt فى "تاريخ العالم" للهيلمهولتوف)

وكان حفيد أكبر شاه أورانغزيب(١٦٥٨-١٧٠٧م) حاكما فعليا فى كافة أراضى شبه الجزيرة الهندية ، وعلى القارئ الكريم أن يلاحظ أن ذلك لم يكن قبل زمن طويل جداً!

لم يهدم المسلمون شيئا من الأراضى الخاضعة لسلطانهم ، بل استوعبوا العلوم التى ازدهرت بين الشعوب الواقعة تحت حكمهم ، وأثرتها ونقلوها الى الشعوب الأخرى . ولا شك أن الفضل فى هذا التصرف العام يعود إلى روح وتعاليم الأسلام . إن أحد قياصرة بيزنطة لم ينقطع عجبه أمام إصرار "القائد الهمجى" على إدخال بند يضمن له "حق شراء المخطوطات اليونانية" من ضمن بند اتفاقية السلام. وكان هذا القائد الهمجى قائدا عربيا مسلما.

لقد استوعب الأسلام ابداع الفينيقين فى مجال معالجة الزجاج ، ومن المصريين فى مجال النسيج ، ومن السوريين فى مجال القطن ، ومن الفرس فى مجال الحرير. يقولريسلير: لقد كان نسيج البيزنطيين والأقباط والساسانيين ذائع الصيت فى ذلك الوقت ، ولكن المسلمين استطاعوا الحفاظ على مستوى روعته."

وهناك نماذج من الأقمشة المصنوعة فى ذلك الوقت تحفظ فى متحف لوفر فى فرنسا والمتحف القيصرى فى اليابان . لم يدرك أحد حتى الآن مهارة وهندسة العرب فى معالجة الزجاج . يحتفظ تحف لوفر والمتحف البريطانى بقطع من روائع المصنوعات الزجاجية من سامراء والفسطاط . وكان الكيميائيون العرب أول من أخترع الصابون وأقاموا مصانع لأنتاجه ، وكان للوزير الفضل البرمكى قصب الفضل فى إنشاء مصنع الورق فى بغداد ، ولكن صناعة الورق الذى اخترع فى الصين تطورت وانتقلت بسرعة فائقة عن طريق المسلمين فى الأندلس فى أنحاء أوربا، بينما ظلت مدينة سمرقند تنتج أجود أنواع الورق فى العالم مدة طويلة من الزمن.

اختط العرب مدينة بغداد – المدينة السحرية من قصص ألف ليلة وليلة – بعد أن فتحوا بلاد العراق . وعندما حكمها الخليفة هارون الرشيد لم يكن قد مر على تأسيس بغداد أكثر من خمسين سنة ، ولكنها كانت حاضرة العالم فى الثقافة والرخاء .وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد سكان بغداد فى القرن الحادى عشر بلغ أكثر من مليونين ، وكانت أكبر مدينة فى العالم فى ذلك الوقت . وعند حديثه عن هارون الرشيد راعى الحضارة الإسلامية ، يقول ى.ريسلر: " كانت عظمته تجذب نوابغ الراجال إليه مثل المغنطيس ، فجمع حوله برلمانا غير مألوف تكون من الشعراء والفقهاء والأطباء واللغويين والموسيقيين والفنانين ، ولم يسجل التاريخ أن قصر حاكم ما اجتمع فيه هذا العدد من العلماء الفطاحل ، مثلما حصل فى عهد هارون الرشيد ، لأن عهده كان عهد حضارة راقية وتسامح .

وفى عهد الخليفة المأمون كان فى أنحاء الخلافة الإسلامية أكثر من أحد عشر ألف كنيسة ، ومئات المعابد اليهودية ومعابد عبدة النار ؛ وأصبحت الجامعة النظامية التى أسست سنة ١٠٦٥م نموذجا أتبعته أغلب المراكز العلمية فى كبرى مدن الخلافة ، وكانت تدرس علوم القرآن والحديث والفقه – خاصة فقه المذهب الشافعى – وعلم اللغة والأدب والتاريخ وعلم حضارات الشعوب والآثار والفلك والرياضيات والكمياء والفزياء والموسيقى والهندسة . بعد قيام النظامية بمدة وجيزة اسست فى بغداد الجامعة المنتصرية وكانت بحق مركز العالم الأسلامى يرعى علوم الفقه والعلوم التطبيقية والأدب والفنون وغيرها . وهذا النظام الحقيقى لتدريس العلوم هو النظام ذاته الذى قلده الغرب بعد ذلك بتوحيد علوم المذاهب النصرانية الأربعة فى جامعة باريس .

كانت الدراسة فى المراحل الابتدائية – أو ما يعرف اليوم بالمدارس الابتدائية والثانوية – بدون مقابل . ومن أجل السماع من أعلام عصرهم والأخذ عنهم رحل آلاف طلبة العلم إلى مكة

والمدينة والقاهرة ودمشق وبغداد ؛ وأثناء رحلتهم العلمية قدمت لهم خدمات المبيت والطعام والدراسة بدون مقابل فى جميع المدن التى مروا بها . وبعبارة أخرى يمكن أن نستخلص مما ذكرنا : إننا نرى فى العالم الأسلامى فى القرنين العاشر والحادى عشر ظاهرة لم نسمع بها قط فى أى حضارة أخرى : أينما يممت وجهك ترى الشغف بالكتاب والعلم ، تدوى أصوات أفصح العلماء فى آلاف المساجد ، تعج قصور الحكام والأمراء بحلقات الشعراء والفلاسفة ، تقابل فى الطرقات علماء جغرافيا وتاريخ وشريعة يبحثون عن العلم . إن هذه المرحلة لهى أهم مرحلة فى تاريخ الفكر الأسلامى." (ى .ريسلر)

وكان الأسلام يحكم العالم خمسمائة سنة (من ٧٠٠-١٢٠٠م)بمحض تفوقه الحضارى على الأمم الأخرى : "كان الخليفة الناصر فى مدينة مراكش يتباحث مع الفليسوف ابن رشد فى فكر أرسطو وأفلاطون ، فى وقت كان أمراء ونبلاء الدول الغربية يتفاخرون بأنهم لا يعرفون القراءة أو الكتابة ."

كان الخليفة الحاكم الأموى يمتلك مكتبة تحتضن ٤٠٠ ألف مجلد ، وكان ملك فرنسا كارلو الخامس الملقب ب "المعلم" يفتخر بعد ذلك بأربعمائة سنة بمكتبتة التى تكونت من "أكثر من ألف مجلد" ويذكر اليعقوبى أنه أحصى سنة ٨٩١ م أكثر من مائة مكتبة فى بغداد وحدها . ويضيف ى.ريسلر: لم يجرؤ أحد من أغنياء المسلمين على إمساك ماله عن الأنفاق فى العلم والأدب والفنون."

وحوت خزانة مكتبة مدينة النجف الصغيرة فى العراق ما يزيد على ٤٠ ألف مجلد ،وكتبة أبى الفداء – أحد الأمراء الأكراد من حماة – ٧٠ ألف مجلد ، ومكتبة المؤيد من جنوب الجزيرة العربية أكثر من ١٠٠ ألف مجلد ، ومكتبة مراغة ٤٠٠ ألف مجلد ، وكانت أسماء الكتب الموجودة فى مكتبة مدينة الرى مدونة فى عشر سجلات (فهارس) ضخمة ؛ ولكن أكبر مكتبة وجدت وقتئذ وجدت فى العالم كانت مكتبة العزيز فى مدينة القاهرة ، وحوت مليون وستمائة ألف (١,٦٠٠,٠٠٠) مجلد ، منها ٦,٥٠٠ مجلد فى الرياضيات و ١,٨٠٠مجلد فى الفلسفة : وأما مكتبة مدينة بخارى فقد وصفها الفليسوف الشهير ابن سينا بقوله :"رأيت كتبا لا وجود لها فى أى مكان فى العالم !"وفى معرض ذكره للحاكم العظيم فى الأندلس الإسلامية عبد الرحمن الأول ، ومحاولته جمع العلماء من مختلف الأجناس فى الجزء الغربى من الخلافة ، مثل العرب والبربر والمرابطين والأندلسيين ، يقول ى. ريسلر :"إن هذا الهدف كان فى حقيقة أمره حركة استطاعت عبر القرون القادمة النهوض بالأندلس الأسلامية إلى ذروة الحضارة البشرية . وعند وفاة الخليفة عبد الرحمن الأول سنة ٧٨٨م كانت الأندلس الأسلامية أضاءت عالم الغرب بأنوار علوم الشعر والفنون الهندسية ."

ويذكر العالم الهولندى دوزى أن جميع سكان الأندلس الإسلامية كانوا يحسنون القراءة والكتابة ، فى وقت كانت الكتابة حكرا على عدد من رجال الكنيسة ، ويضيف :"لقد جذبت هذه الحضارة الزدهرة رجال الكنيسة وعامة الناس فى الغرب النصرانى ورحلوا بكل حرية إلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ليحضروا محاضرات مشاهير العلماء المسلمين فى الجامعات الأسلامية ."

وكانت الزراعة بلغت مستوى عاليا من التقدم فى أرجاء بلاد الخلافة لأنها كانت تحت تأثير مباشر لمعطيات العلوم . ونظرا لضيق الوقت للاسترسال فى هذا الموضوع ، فإننا سنسرد بعض

الحقائق الموجودة فى متناول يدنا :"عينت الدولة موظفا مسؤلا عن شبكة الرى فى جميع أقاليم الدولة الإسلامية ....وقد ظهرت بحوث علمية فى مدينة إشبيلية تناولت تفاصيل زراعة ما يزيد على خمسين نوعا من الفواكه وذكرت أمراض النباتات وأساليب علاجها....وكان إنتاج الحرير فى بلاد فارس قد ارتقى إلى مستوى الأنتاج وفق الحقائق العلمية ، لذلك استطاعت فارس تغطية احتياجات الأسواق الأوربية فى الحرير لمدة تزيد على مئة عام .ويصف الإدريسى وصفا دقيقا ٣٦٠ عقارا من العقاقير المستخدمة فى استخراج الأدوية ، بينما قام ابن العباس من إشبيلية بإجراء أبحاث فى نباتات البحار ، وبذلك استحق لقب "النباتى" ...

وفى سنة ١١٩٠م اشتهر ابن العوام بكتابه "كتاب الفلاحة " فى إشبيلية أيضا، وصف فيه أنواعا من نباتات وفواكه وذكر أنواعا رئيسية من الأسمدة ... إن هذا التطور الكبير فى علوم الزراعة يعد أحد المنافع المستمرة التى استفادتها دولة إسبانيا الحديثة من حضارة العرب . وكانت حالة الرخاء قد عمت أودية دجلة والفرات والنيل ، كما عمت سكان هضاب الفرس وسوريا بقدر ما عمت الحواضر والموانئ على سواحل البحار." (ى. ريسلر)

وصل الطب والصحة الى مراحل متقدمة جدا وهذا ما يهمنا بشكل خاص ، لأن هذا الجانب - بدون شك- يدخل ضمن النتائج المباشرة لأوامر وفروض الإسلام . يزيد عدد الأحاديث التى تتحدث عن الطب والصحة عن ٣٠٠ حديث ، وقد جمعت فى كتاب "الطب النبوى" والنتيجة المباشرة لهذا أننا نجد فى كافة المناطق التى خضعت يوما ما للسلطة الأسلامية عناية خاصة بشبكة المياه والحمامات والمستشفيات. هذه هى الوظيفة العامة للحكومة الأسلامية .نجد أربعة وثلاثين مستشفى فى أنحاء الدولة الإسلامية سنة ٨٥٠م ، وقد كان مستشفى (بيمارستان) دمشق يدار من تبرعات الدولة السخية ، وكان مجهزا تجهيزا فائقا ومفتوحا أمام الأغنياء والفقراء ، ويديره فريق مكون من أربعة وعشرين طبيبا مختصا . يقول نيوبورغر Neuburger –أستاذ تاريخ الطب : " إن جميع الرحالين فى القرون الوسطى – وهم جم غفير – متفقون فى إعجابهم بمستشفيات الشرق ، وكان تنظيم وإدارة المستشفيات يمثل أحد أروع منجزات الحضارة الأسلامية."

وقد أقيمت شبكة المياه فى سراييفو قبل لندن ب ١٤٨ سنة ، و٣٧٨ سنة قبل فينا !كما كانت الحمامات العامة ظاهرة مألوفة وخاصية من خصائص الأسلام ، وكان الأهتمام بالنظافة الشخصية شيئا اعتياديا فى بيوت المسلمين ، أغنيائهم وفقرائهم على حد سواء ، تدل على ذلك حمامات فى غرف مفردة فى داخل البيوت. ولمجرد المقارنة نضرب مثلا لصورة واقعية عن حى هارلمالمخصص للسود فى نيويورك – فى النصف الثانى من القرن العشرين - حيث تنتشر فى شوارعة الروائح الكريهة والقمامة وروائح أنواع الخمر الرخيصة وبيوت الدعارة . ولنأخذ حالة مدينة باريس . أعتبر نفسى جريئا جدا إذا استطعت أن أنقل على لسانى ما ذكرته صحيفة "كورييرا ديلا سيرا" Corierre della Sera الإيطالية عن مدينة باريس سنة ١٩٦٥م: "إن ٦٦% من مساكن باريس – وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ٨٠%فى قلب المدينة – لا يوجد فيها حمام إطلاقا، بينما ينتظر ١٠% من سكان باريس تحقيق أمنية الفليسوف Voltaire . بأن تمتد شبكة المياه إلى جميع سكان باريس ."

أمر الخليفة المنصور سنة ٧٧٣م بترجمة كتب علم الفلك التى كتبت حول سنة ٤٢٥ قبل الميلاد باللغة الساسانية . كان إبراهيم الزركلى قد وضع "جدول طليطلة" البيرونى الطريق أمام كوبيرنيك بدحض نظرية انحراف الكواكب عن مركزها التى وضعها بطليموس فى تفسير دوران الكواكب .وتمكن عمر الخيام (المشهور فى الغرب بشعره أكثر من علومه) من وضع تقويم أدق من التقويم الغربى الذى نستخدمه اليوم ، لأنه يخطئ فى حساب يوم واحد كل ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة.

وكانت كتب ابن الهيثم ،العالم المسلم من الأندلس ، فى علم البصريات أساسا لبحوث علماء أوربا ، مثل بيكون وكابلير ، بينما قال عالم الرياضيات شاسليس Chasles (فى القرن التاسع عشر) عن بحوث ابن الهيثم :"إنها كانت أساس وجوهر ما توصلنا إليه فى مجال علم البصريات"؛ ويضيف عالم الفلك بايغوداين Bagourdain :" كانت بحوثه أدق بكثير من نظرية بطليموس ."إن النتيجة العامة التى يخرج بها سايديلوت Sedilot فى دراسة علم الفلك عند العرب هى :"وصلت مدرسة علم الفلك فى بغداد فى نهاية القرن العاشر إلى أقاصى حدود المعرفة التى كان يمكن للأنسان الوصول إليها دون أستعمال العدسات والمرقب (التلسكوب)."

ونجد أثر الشعر العربى واضحا فى "ملحمة رونالد"، أول ملحمة كبيرة فى الأدب الغربى (كتبت سنة ١٠٨٠م تقريبا)، كما لا ينكر أحد تأثير الشعر العربى فى الشعر مثل بوشاكو G.Boccaccio، وشانسير Chancer، وتنيسون A.Tennyson، وبراونينغ R.Browning، وكان الشاعر دانتى ، كاتب الكوميديا الإلهية "تحت تأثير قوى للشعر الإسلامى."حفلت فصول هذه الملحمة الرائعة بأوصاف عربية أصيلة لرحلة فى أسرار ملكوت السماء والجحيم "- كما يقول أحد نقاد الأدب ، ويعزوه آخرون إلى الأدب العربى ، وخاصة إلى كتب الفيلسوف ابن عربى من القرن الثالث عشر. (ى . ريلسر)

إن فكرة رواية "دون كيشوت" Don Quijote مقتبسة فى أصلها من العرب ، لأن المؤلف سيرفانتس Miguel de Cervantes عاش مدة طويلة أسيرا فى الجزائر ، وأعترف بأنه كتب روايته هذه باللغة العربية أولا ، كما أن الأديب دانيال ديفو Daniel Defoe استلهم فكرة روايته الشهيرة روبينسون كروزو Robinson Crusoe من كتاب "حى بن يقظان" للفليسوف العربى ابن طفيل ، إلخ ...

ولابد لى فى هذا المقام من الأعتذار إلى القارئ الكريم لأننى أمطرته بوابل من الحقائق التى كان لا مفر من إيرادها ، لأفسح أمامه مجالا كى يجيب بنفسه وفى نفسه عن السؤال : هل الإسلام يخدر ويثبط قوة وإرادة شعب ما ؟ وهل يمكننا قبول رأى يرى أن الإسلام الذى كان مصدر إلهام وحركة إبداعية أقامت مدنا ودولا فى عهوده السالفة ، يأتى اليوم - أو فى أى زمان مستقبلى- بتائج مخالفة كليا لما كان عليه ؟

يجب أن أنبه إلى أن هذا العرض لبعض معطيات الحضارة الأسلامية هو عرض مقتضب وغير كامل . ولم أورد هنا شيئا من نماذج الفلسفة الإسلامية ، وإن حق لها أن تفتخر بعشرات الأسماء اللامعة . إن أشد العروض إيجازا لتاريخ الفلسفة الإسلامية ليتطلب عدة مجلدات ، كما نجد ذلك فى كتاب "مفكروا الأسلام"- Les-penseursde I'Islam بالغة الفرنسية ، الذى يقع فى عشر مجلدات ؛ ولم نعرض أيضا لذكر فن العمارة الإسلامية التى لا يمثل تاج محل فى الهند وقصر

الحمراء . وسعيا وراء تحقيق الهدف المحدد الذى وضعناه فى بداية المقال ، من بحر الحقائق المرتبطة بظاهرة معروفة باسم "الحضارة الإسلامية" مررنا مرور الكرام على بعض الحقائق المعروضة دونما انتظام وإتقان ، وشأننا فى ذلك شأن عالم الجيولوجيا الذى يقبض حفنة من رمل أو حصى ليبنى عليها تصوره عن تركيبة الجبال الشامخة الممتدة أمامه .

ويحق لبعضنا أن يتساءل مع وجود كل هذه الحقائق التاريخية ، كيف أمكن الحفاظ على الأساطير التى تقدم الإسلام فى صورة دين التطرف والجهل والطغيان؟

إن التشبث بهذه الصورة الكاذبة المغرضة عن الإسلام ، التى كونت عنه فى القرون الوسطى ، كان ومازال إلى اليوم من أولويات مصالح اتجاهات فكرية وسياسية مختلفة فى أوربا ؛ وهذه الاتجاهات – مع خلاف دائم ومستميت فى جميع المسائل فيما بينها – متفقة تماما إذا أحتاج الأمر إلى النيل من الإسلام والمسلمين . ولكل طرف كانت مصالح فى ذلك :"العناصر المتقدمة" لها أهداف ، والكنيسة لها أهداف ، وللدول الاستعمارية التى استطاعت أن تقدم حروبها ضد دول الشرق بسبب النهب والسلب والسرقة والقرصنة فى صورة "إرساليات التنوير بين الشعوب الهمجية والبربرية." وساعد ذلك التوجه جهل أجيال المسلمين المتعاقبة لحقائق التاريخ الثابتة ، إضافة إلى أن حالات مستشرية من الفقر المدقع وقلة النظافة فى العالم الأسلامى فى عصر الانحطاط جعلت هذه الصورة المزورة تترسخ أكثر.

ويمكن ، كذلك ، تحقيق النتائج نفسها باستخدام أسلوب مجرب فى تقديم أنصاف الحق . وتكمن حقيقة هذا الأسلوب فى رصد منتظم ومتقن لجميع السلبيات الظاهرة وتكرار ذكرها بصورة مستمرة ، وبالسكوت المطبق المتعمد عن كل المنجزات والمظاهر الإيجابية فى تاريخ وحاضر العالم الأسلامى .

ولنضرب مثالا على ذلك ب"مؤامرة السكوت" عن مساهمة الإسلام فى ازدهار العلوم . لا يمكن أبدا تصور التطور التاريخى فى علم الرياضيات بدون معرفة مساهمة الإسلام فى مجال هذا العلم . ومع ذلك فقد انبرى عدد من "المؤرخين المهرة" لتحقيق هذا الهدف مستحيل البلوغ . ففى عرض تاريخ علم الرياضيات إنهم يقفزون بكل بسهولة ووقاحة من إقليدس Euclidius (توفى سنة ٢٧٥قبل الميلاد) إلى بدايات علم الرياضيات فى أوربا ، متجاهلين بذلك مدة ألف سنة من تاريخ هذا العلم . ولن يلاحظ القارئ العابر هذه "القفزة القاتلة"، وحتى لو انتبه للخدعة فإنه لن يعبأبها لأن ذهنه مهيأ مسبقا للفراغ التاريخى المسمى "بالقرون الوسطى". ولا يعرف القارئ بأن عصور الظلام فى القرون الوسطى لا وجود لها فى مناطق شاسعة تمتد من الأندلس إلى الهند ، بينما فى حقيقة الأمر أهملت عهود تطور وازدهار علم الرياضيات . اخترع عالم الرياضيات المسلم ابن أحمد رقم "الصفر" واقترح استخدامه فى كتابه الشهير "مفاتيح العلوم"؛ ويمكن للقارئ المطلع فقط أن يدرك أهمية هذا الأكتشاف الذى يعد ثروة حقيقية فى علم الرياضيات .

وقد ترجم غيرارد دى كريمونى Gerard de Cremone فى القرن الثانى عشر للميلاد كتاب محمد بن موسى بن شاكر "حساب الدوائر والمعادلات" إلى اللغة اللاتينية ، وظل الكتاب مرجعا أساسيا فى الجامعات الغربية حتى القرن السادس عشر . لقد انتقد عمر الخيام Omar Al-Khayyam مبادئ علم الهندسة لدى إقليدس ، وتعتبر نظرية المعادلة التكعيبية Cubic equation التى وضعها أعلى ذروة علم الرياضيات فى العصور الوسطى على الأطلاق .

يعد محمد بن جابر البتانى (القرن العاشر) Albategnius واضع علم حساب المثلثات الحديث trigonometry وأما القواعد التى أرساها وقتئذ فما زالت معمولا بها إلى وقتنا الحاضر . إن مصطلحات جيب الزاوية Sine ، ومنحنى جيب التمام Cosine ، وظل الزاوية tangent ، وظل التمام cotangent ، ونظرية ذات الحدين binomial theorem ، ونظام ثلاثى التماثل trigonometric system ، كانت من وضع المسلمين العرب ، وقد وضع أول جداول النسب المثلثية trigonometric tables حسن المراكشى سنة ١٢٢٩ م . يقول ى. ريسلر:"لم يكن كل ذلك من وضع اليونانيين ، بل كان من وضع العرب الذين يعدون بحق أساتذة الرياضيات فى عصر النهضة الغربية."

وهذا مجرد مثال بين أمثلة كثيرة تكاد تكون متطابقة عن كافة العلوم . ولنا حق فى الحفاظ على ماضينا ، ويجب أن نشق الطريق إليه ، لكى نعلم علم اليقين من نحن ،ومن أين ننحدر وإلى أين يتعين المسير . ونرى من رأى العين من هذا المنظور التاريخى كم كانت طويلة عهود التاريخ التى شارك المسلمون فيها مشاركة فعالة فى تاريخ البشرية السياسى والحضارى ، وكم يتقاصر أمامها عصر تخلفنا !

إن أعمق نقطة الانحطاط التى تردى فيها العالم الإسلامى – أعنى بها اللحظة المأساوية فى خريف سنة ١٩١٨م – عندما لم تكن دولة إسلامية واحدة مستقلة قد ولت فى ماض سحيق ؛ ونأمل أن تكون قد اصطحبت معها ذلك الأعتقاد بأن كلمات "الذل والاحتقار والفقر والبؤس والجهل" تلازم كلمة "الإسلام والمسلمون".

إننا لنرى الأن فى كافة أنحاء العالم الإسلامى علامات الصحوة وانبعاث الإرادة الجديدة . هناك شئ قد تحرك ، وهذا الشئ الذى تحرك لا يمكن لأحد أن يوقفه أبدا !!! وكل ذلك لا يمكن اعتباره نهضة حقيقية ، ولكنه وعد مؤكد بقدوم تلك النهضة .

إن السؤال المطروح فى مفتتح مقالنا هذا "هل الإسلام سبب تخلف الشعوب الإسلامية ؟" قد أصبح – على ما يبدو – سؤالا مقلوبا : أليس غياب الإسلام عن الفرد والمجتمع سببا مباشرا للتخلف الذى نتحدث عنه ؟

وهذا السؤال يقودنا إلى أن نسلط الضوء على الشرط الثانى الذى أشرنا إليه فى أول هذا المقال : هل يتبع المسلمون الإسلام فعلا ؟

إن الإسلام يطالبنا بالشجاعة ومدافعة الظلم . ومن الآية التاسعة والثلاثين من سورة الشورى ((والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون)) نستنتج أن من يستسلم للظلم لا يتبع الإسلام اتباعا سليما ، لأن هذا هو الذى يدعوا إليه القرآن وتؤكده آلاف الأمثلة عبر التاريخ الأسلامى . رغم ذلك كله ، فأن المجتمعات الإسلامية مليئة بالأذلاء والجبناء والمتزلفين إلى الحكام . إن آلاف سكان بغداد توجهت بمنتهى الاستسلام – مثل قطيع الغنم – إلى سلخانات المغول !هل يبقى أمامنا ، بعد ذلك مجال للأقرار بأنهم كانوا من أتباع الإسلام على وجهه الصحيح؟

إن الإسلام يحرم شرب الخمر ، ولكننا لا نكاد نجد دولة إسلامية إلا وتصنع الخمر فيها وتقدم وتشرب ، مخلفة بذلك الدمار والكارثة فى الأسرة والمجتمع وجعل الإسلام الأخوة بين المسلمين فرضا ، ولا يزال المسلمون يختلفون ويقتتلون لصالح المستعمر الأجنبى . لقد أعطى الإسلام

المرأة مكانة رفيعة من الأحترام وجعل لها قدرا كبيرا من الاستقلال ، وجعلها متساوية مع الرجل فى الحقوق والواجبات فى كثير من النواحى . ألم يكن النساء يرافقن أزواجهن فى الغزوات فى صدر الإسلام، وشجعنهم على الإقدام بالتكبير والأشعار ، كما وقع فى معركة اليرموك سنة ٦٣٤م؟ إن أحدى أقدم جامعات العالم – جامعة القيروان بمدينة فاس فى المغرب التى احتفلت عام ١٩٦٠ بمرور ألف ومائة سنة عن تأسيسها – لهى من وقف امرأتين مسلمتين! وعلى نقيض ذلك، فأن وضع المرأة المسلمة فى بعض الدول الإسلامية ليعتبر نموذجا لاستعباد المرأة وسلب حقوقها . أعلن الإسلام صراحة أن ملكية الأرض تعود إلى المجتمع (أو الشعب)، أى أن لجميع المسلمين حقا فيها . ولكن الأقلية من الأثرياء والوجهاء سطت على غالبية أراضى الدول، تاركة ملايين الفلاحين لا يملكون قيد شبر من الأرض ؟

كانت الأحوال فى العراق قبل إعلان الإصلاحات الزراعية سنة ١٩٥٨ م على هذا النحو : ملك الإقطاعيون ١٨ مليون فدان من مجموع ٢٢ مليون فدان من الأراضى العراقية الصالحة للزراعة ، أو ما يعادل ٨٢% منها، وكان عددهم ٣,٦١٩ رجلا! بينما كان مليون ونصف مليون فلاح لا يملك شيئا إطلاقا! وكانت الأوضاع فى غالب دول المسلمين مشابهة لوضع العراق .

يقرر الإسلام مبدأ ((إنما المؤمنون أخوة)) ولكننا نعلم علم اليقيين أن إقطاعيا ليس أخا للفلاح . ولقد قرر الإسلام وجود حق الفقراء فى أموال الأغنياء ، ولو طبق هذا المبدأ لأدى بكل تأكيد إلى إزالة الفوارق الاجتماعية فى مجتمعات المسلمين . ولكننا نجد فى مدن كثيرة مظاهر ثراء مفرط وفقر مدقع!

ويقرر الإسلام أنه ((لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع)) ولكن الإحصائيات تشير إلى أن نسبة المسلمين الذين يعانون من سوء التغذية تصل فى بعض الدول الإسلامية إلى ٢٠% من مجموع سكانها ، فى الوقت نفسه ينام "أخوانهم فى الدين" على حرير وقطيفة واستبرق ، من غير أن يؤرق نومهم – على الأقل – وخز الضمير من أجل أحوال إخوانهم – أى جيرانهم !

وضع الإسلام نظام الخلافة ، ولكن الخليفة انقلب إلى "ملك الملوك"! حاولوا أن تتصوروا بأى حكم يمكن أن يحاكم أبو بكر وعمر بن الخطاب – رضى الله عنهما –"ورثتهم" فى الخلافة الذين يلهون فى قصورهم ب"الحرم والخدم" خلف أسوار منيعة وبدلا من رفع راية الجهاد يخططون للمداهمات والقرصنة وحروب السلب والنهب . إن الرسالة التى وجهها عمر ابن الخطاب إلى عامله على الكوفة (هـ.غ. ويلز،"تاريخ العالم" ص٣٤٥) – الذى يشبه إلى حد كبير بعض حكام الدول الإسلامية – لا يضع أدنى شك حول الحكم الذى يمكن أن يصدره أبو بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، فى حق "ورثتهم" فى الخلافة .

ولكن أمور الشعوب تنبنى على "كما تكونوا يول عليكم". إن طريقة حكم بعض الرؤساء والملوك والأمراء وأعوانهم الذين عشعش فيهم جميع انواع الفساد ، لتؤكد أن شيئا ما قد "تعفن جدا" داخل الشعب نفسه ، لأن السعادة حليف الشجعان ، ويكون فقط من نصيب الشعوب الصالحة والطاهرة أن تنعم بالحكام الصالحين .

يذكرنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن الحكم العام على نظام القضاء هو :((قاضيان فى النار وقاضا فى الجنة))؛ وليس هناك شىء يمكنه مقاومة فساد الحكم وتاثيره التدميرى فى الشعب

غير الإيمان بالله والإحياء المتواصل للأخلاق الإسلامية السامية ، لذلك يجب على الشعب أن يملك وسائل التمييز ليفك الاغلال ويضرب على يد القاضيين من أهل النار !

لقد أقام الإسلام حربا على الشرك وقضى عليه بحركة واحدة فى مناطق شاسعة من العالم آنذاك لأنه وضع حدا فاصلا بينا بين الإيمان والخرافة . ولكن الخرافة وجدت لها مرتعا فى قلوب وبيوت كثير من المسلمين ، ثم ظهرت فى صورة التمائم والطلاسم وما شابه ذلك ، لتمهد الطريق للتجارة الرابحة بالدين ، لأنه إذا لم يقض الدين على الخرافة قضت الخرافة على الدين . وكان النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – يتهم بتعليم المسلمين حتى فى أيام الحرب الضروس، إذ يجعل تعليم عشرة من المسلمين فدية للأسير من أسره بعد معركة بدر.

إن المسلمين الأوائل عملوا جاهدين على ترجمة مكتبات كاملة من اللغتين اليونانية واللاتينية ، دونما خوف من كون هذه الكتب أصول الحضارة الوثنية ، لأن قاعدتهم فى ذلك هى الحديث ((الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها فهو أولى بها))، بينما ينادى أحد حكام المسلمين فى هذا العصر – وباسم الإسلام ؟- بوضع الحد لتعليم شعبه .إنه يريد خدمة الإسلام بنشر الجهل بين أبنائه؟

لنترك هذه الفكرة الغريبة عن فرض قيود على التعليم ، ولنذكر أن غالب الدول الإسلامية لا تنفق على التعليم أكثر من ١% من ميزانيتها ، ولكن الدول التى تسعى إلى القضاء على أمية شعبها فى زمن معقول إلى حد ما ، فأنه لابد لها من زيادة الانفاق خمسة أضعاف ذلك .(أخذت كلتا المعلومتين من تقرير منظمة "يونسكو" سنة ١٩٦٤ م عن الاقاليم التى تسكنها شعوب إسلامية)

يهدف الإسلام إلى إقامة جماعة تضامن من خلال العبادات ، مثل الغيمان بالله والصلاة والصوم والزكاة والحج ، ليكون أفراد الجماعة يتقاسمون الجهاد والفرحة والآلام ، ويكون تحقيق الأخوة بين جميع الناس هدفا دائما يسعون إليه ، وإن ظهر أحيانا أنه بعيد المنال . وعلى نقيض ذلك تقول الصورة الواقعية إن أغلب مجتمعات الدول الإسلامية خليط من فقراء الفلاحين وقلة الأغنياء ، والمثقفين والغرباء الذين أضحوا أجانب فى أوطانهم ! إن الفلاح الجاهل الفقير يحب الإسلام – وقد لا يفهمه - ، والغنى يظهر ولاءه للأسلام نفاقا ، ويظل المثقف معاديا له أو غير مباليا به.

وقد صدق النبى – صلى الله عليه وسلم – حين يقول:((غن أخوف ما أخاف على أمتى عابد جاهل وعالم فاجر)).

نعم، هناك بين المسلمين أمور كثيرة تقشعر لها الجلود، وحتى غير المسلمين يدركون ويلاحظون ذلك:"لو قام محمد- صلى الله عليه وسلم – من قبره ورأى كم بدل أتباعه دينه ، لاحمر وجهه غضبا ولعن كل من شارك فى تلك البدع".(لوثروب ستودارد Lothrop Stodard فى كتابه "حاضر العالم الإسلامى" الذى نشر غداة الحرب العالمية الثانية".

تشكلت فى البرلمان الباكستانى ، قبل عدة سنوات، لجنة خاصة لدراسة التدابيرالتى تهدف إلى علاج المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى يعانى منها شعب الباكستان ، واوصت اللجنة بمحاربة الخمور وبيوت الدعارة والربا وبعض العادات الجاهلية لأن هذه الأوبئة تفتك بالمجتمع وتعود عليه بأضرار اقتصادية وأخلاقية بالغة . وقد نشرت وسائل الإعلام أن أصحاب بيوت

الدعارة نظموا مظاهرات مع مكفولاتهم فى مدينة كاراتشى احتجاجا على توصيات اللجنة ، مطالبين "بحرية العمل" فى دولة تعلن تطبيق الشريعة الإسلامية ؟

وهكذا دواليك!

عن صورة واقع الشعوب الإسلامية قد لا تكون شاملة بما ذكرنا هنا ، ولكنها قائمة بما فيه الكفاية ، ويمكننا سرد هذه المظاهر المحزنة ، التى تستصرخ بمن سيهدمها ، إلى ما لا نهاية . ومع ذلك فغن الملسمين المخلصين يجدون السلوى فى إداكهم بأن الوضع القائم ليس نتيجة لتطبيق الإسلام . بل بالعكس ، إنه نتيجة لرفضه وإستبعاده ؛ وليس نتيجة حضوره ، بل نتيجة غيابه !

إن هذا السلوان مبنى على المنطق التالى :إذا كان قد ترتب على غياب الإسلام مرحلة التخلف والفوضى والفساد ، فهل عودة الغسلام تعنى إشراق روح جديدة وبداية عهد مشرق فى حياة الشعوب الإسلامية ؟

كلما طرحنا هذا الؤال ، كلما جر وراءه هذا السؤال الثانى عن صلاحية الإسلام للزمن المعاصر وقدرته على إلهام وتوجيه حياة الأنسان فى ظروف جديدة ومتغيرة . إننا كثيرا ما نسمع الاعتراض من قبيل: كان الإسلام عامل تطور وكان ملائما للعصور القديمة التى اصبحت فى حكم ماض سحيق، ولكننا نعيش عصر الذرة ...إلخ. إن الاعتماد على "عصرالذرة" بات حجة دامغة فى الحديث عن موضوعنا هذا .

إن الحديث عن صلاحية الإسلام لعصرنا الحاضر لا يمكن إجراءه بعمومه ، لأنه قبل الحديث عن عدم صلاحية الإسلام أو صلاحيته يجب أن نتحدث أولا عن الأمور التى يأمر بها أو ينهى عنها . لذلك يمكننا ان نتسائل هل نهى الإسلام عن شرب الخمر وأمره المسلم بالحفاظ على طهارة البدن صالح أو غير صالح لهذا العصر ؟ أو : هل كانت أركان الإسلام خارجة وبعيدة عن التوجه الحضارى الذى يحدد اتجاه تطور الإنسانية؟

وإذا ذكر غرس الإسلام الأساسى فى الأنسان ، فأن الذهن ينصرف تلقائيا إلى أوامره الخمسة المعروفة باسم "أركان الأسلام" . تعالوا بنا نبحث فى إيجاز فى صلاحية أركان الإسلام الخمسة فيما يسمى ب"عصر الذرة".

إن ركن الإسلام الأول هو "شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله"يمكننا أن نذكر دعاة "التنوير" الذين يشككون فى مستقبل الدين فى "عصر الذرة" بأن أعظم رائد نهضة فى العصر الحديث ، ألبرت أينشتين Albert Einstein ، كان يؤمن بالله . وكان يرى أن إيمانه بالله لا يتعارض أبدا مع ما توصل إليه من علم الفيزياء والفلك ، رغم كل ما تعنيه هذه العلوم لحياة الأنسان. فلنورد هنا ما يراه فى هذه المسألة :"إ ن أساس كل دين معرفة وشعور بأن ما لا يمنك إداركه وإحاطته أبدا موجود فعلا ، ويتصف بأكمل حكمة وجمال ، ولكن حواسنا الضعيفة لا تقوى على إدراكه إلا فى أبسط صورة . لذلك أنا متدين جدا إن قلبى يرتضى بقبول سر الحياة الخالدة ، وبمعرفة وتخيل الهندسة البديعة للكون ، فأحاول متذللا ،إدارك – ولو بجزئه الصغير – ذلك القل البديع الذى يتجلى فى الطبيعة ."

إذن ليس الدين خاصية من خصائص بدايات التاريخ الإنسانى ، والإلحاد والأنكار خاصية من خصائص "عصر الذرة". وكان الدين والألحاد يتصارعان عبر جميع عصور الإنسانية .

ليست الصلاة عبادة محضة . إنها كانت ويجب أن تكون من جديد مدرسة الانضباط التآخى والتضامن . إن الصلاة طهارة وعمل ومشاركة . لقد اطلع قائد جيوش الفرس الوثنية على صفوف المسلمين المتراصة أثناء أداء الصلاة قبل معركة القادسية ، فصاح :" هذا جيش عمر فى حصة التدريبات العسكرية!"

إن الصوم تربة شاقة تسعى لتحقيق أهداف متنوعة .إضافة إلى أنه عبادة، فأنه يحيى معان تربوية وطبية واجتماعية كثيرة ، لذلك لم تكن المجتمعات الإسلامية ترى فى الصوم مجرد مسألة خاصة بالفرد ، بل كانت تثور ثائرتها أمام كل مجاهرة بانتهاك حرمة هذه العبادة ، لأنها كانت ترى فى ذلك هجوما سافرا على تماسكها الداخلى الذى يبنيه الصوم . إن الصوم تهيئة نفسية لفريضة الزكاة تعاطفا مع الفقراء ، لأن كل المكسلمون يعلمون جيدا معنى الجوع ، ولكن كثيرا منهم يعيش ويموت دون أن يشعر بوطأته.

إن الزكاة ليست صدقة بل هى أشبه بضريبة ، أو إلزام بأخراج جزء من المال لصالح المحتاجين .إن مؤسسة الزكاة فى الإسلام تتضمن مقومات راسخة ليس لمحاربة الفقر فقط ، بل ولتنمية شعور التفاهم والأحترام فى المجتمع الذى يعيش أزمة هذهخ المبادئ.

إن الحج أكبر تجمع معروف يشهده العالم . بناء على معلومات رسمية عم موسم الحج لعام ١٩٦٢م ، لقد وقف فى صعيد عرفات ١,١٨٥,٩٤٨ حاج قادمين من ٦٨ دولة . إن المسلمين لا يستفيدون – أو لا يكادون – من الأمكانات الروحية والسياسية لهذا الملتقى الفريد من نوعه ، لأن الحج يجب أن يتحول إلى أقوى عامل لتقارب وتعارف الشعوب الإسلامية فى زمن هذه الفرقة المحزنة . إن الجو العام فى الحج هو المساواة . يقف مليون رجل مرتدين ملابس واحدة ، يقودهم فكر واحد ، ملغين بذلك جميع افوارق بينهم ، التى لا يمكن إلغاؤها فى أى مكان آخر فى العالم . هذه هى الصورة التى لا تتكرر من المساواة والأخوة ، الصورة التى ستظل حدا فاصلا بين الواقع والحلم .

لقد قال النبى – صلى الله عليه وسلم – فى خطبته الشهيرة أثناء حجة الوداع :((أيها الناس ، كلكم من آدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ، ولا فضل لأبيض على أسود ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم !))

هل هناك أفضل مكان وأحسن لحظة من تلك التى اختارها رسول الله - صلى الله عليه وسلم – ليوجه هذه الكلمات العظيمة إلى أمته ، هذه الكلمات التى هى أبسط وأخلص وأروع فى حقوق ومساواة الأنسان ، الكلمات التى مازالت غاية منشودة فى النصف الثانى من القرن العشرين ؟

إنه لا يمكن تصور عصر قادم يعتقد فيه المسلمون أن هذه الرسالة النبوية وأمثالها قد عفا عليها الزمن ، لأن الشعوب بحاجة لها اليوم بقدر ما أحتاجتها بالأمس .

إننا لنشاهد اليوم ظهور حركة وإرادة جديدة فى بلاد العالم الإسلامى ، لأن حالتنا اليوم هى حالة حركة وبحث ، بغض النظر عن الحيرة المؤقتة والانحراف والهزائم والعوارض الناجمة عن

طول عهد الأزمة والركود ، ولكن هذه المرحلة تشبه كل شيء ما عدا النوم والسكون . إن هذه الإرادة الجديدة التى سيوجهها الفكر الإسلامى ، وستقوى عودها الخيرات الطبيعية التى يزخر بها العالم الإسلامى ، قادرة على أن تبهر العالم من جديد بالنهضة الإسلامية فى الأيام القادمة . إن كل مسلم مطالب بأن يكون فعالا فى هذه النهضة ! أ .هـ

كتبت المقالة فى شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٦٧ م